(٣٦) شاه الكَرْماني [١]

ذكر أبي الفوارس شاه بن شجاع الكرماني رحمه الله:

كان رحمه الله كبيرًا في عهده، مُحتشمًا في وقته، وأحدَ الفتيان، جليلَ الشأن، وصاحبَ فِراسة ما أخطأَتْ فِراسته قطُّ، وكان من أبناء الملوك، وصاحبَ التصنيف، صنف كتابًا سماه «مرآة الحكماء».

وأدركَ كثيرًا من المشايخ، وصحب أبا تراب النَّخشبي، وأبا عُبيد البُسري، ويحيى بن معاذ، وغيرَهم رحمهم الله.

أقول: نُقل أنه مات قبل ثلاث مئة. والله أعلم.

وكان يلبس القباءَ، ولمّا نزل نيسابور زاره أبو حفص مع جلالة قدره، وقال: وجدتُ في القبا ماطلَبتُ في العبا.

نقل أنّه ما نامَ أربعين سنة، وكان يكتحلُ بالملح حتى صارَتْ عيناه كقدحَيْنِ من الدَّمِ، ثم بعد أربعين سنة اتَّفقَ له أن نام، ورأى في المنام ربَّ العزَّةِ جلَّ جلاله، فقال: يا ربّ، طلبتك في اليقظة وجدتك في المنام. فقال الله تعالى: ياشاه، وجدانُك إيَّايَ في النوم كان سبب كثرة يقظتك وانتباهك، فلو لم يكن الانتباهُ لَمَا كنت تراني في المنام. ثم كان ينام ويقول: عشقتُ، إذ ربّما أراه مرَّةً أُخرى في المنام. وكان يقول: لا أُعطي ذرّةً من نومي هذا بجميعِ يقظةٍ في الدنيا.

---

(١) طبقات الصوفية ١٩٢، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧، الرسالة القشيرية ٨٢، مناقب الأبرار ٤٥٢، المنتظم ٦/ ١١١، صفة الصفوة ٤/ ٦٧، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٩٠، الوافي بالوفيات ١٦/ ٩١، طبقات الأولياء ٣٦٠، نفحات الأنس ١٢٨، طبقات الشعراني ١/ ٩٠، الكواكب الدرية ٢/ ٣٦، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٣٦. والكرماني بكسر الكاف وقيل بفتحها، وسكون الراء. الأنساب ١٠/ ٤٠٠.

نقل أنه كان له ابنٌ مكتوبٌ على صدره (الله) بخطٍّ أخضر، ولكن كان يَتَفَتَّى ويُجالس الفتيان، ويشتغلُ بالطربِ وضربِ الرباب، وكان له صوتٌ طيِّبٌ، يضربُ الرَّباب أحيانًا، ويبكي معه، حتى أنّه كان يمرُّ في بعض السكك يضربُ الرباب ويغنّي، فسمعَتْ صوتَه عروسٌ، فطلعت من فراشِ الزوج، وجاءت تنظرُ إليه، وتسمعُ صوته وغناءه، فانتبه الزوجُ وما وجدها عنده، فتبعها ورآها مشغولةً بالنظارة، فصاح عليه، وقال: يا صبي، ما جاءَ الوقتُ؟ ما آن الزمان؟؛ أي زمان التوبة. أثّرَ الكلامُ في قلبه، وقال: نعم، جاء جاء. وكسرَ الرباب، واغتسلَ، واختلى في بيتٍ أربعين يومًا، ما أكل شيئًا، ثم خرجَ، فقال أبوه شاه: الذي وجدناه في أربعين سنة أُعطي الولدُ في أربعين يومًا.

نقل أنّه كانت له ابنةٌ يخطبها أحدُ أبناء الملوك، فاستمهلَ ثلاثةَ أيام، وكان يدورُ في المساجد، ويُفتِّشُ عن أحوال الناس، حتى رأى فقيرًا يُصلّي، فرضيَ بصلاته، ووقف إلى تمام صلاتِهِ، ثم سأل عن أهله، فقال الفقير: ليس لي أهلٌ. قال شاه: هل ترى أن تتزوج بامرأة قارئةٍ؟ قال الفقير: من يزوّجني في مثل هذه، ومالي من الدنيا إلاّ ثلاثة دراهم؟ فقال: أنا أزوّجكَ مع هذه الدراهم الثلاثة، اشتر بأحدِها الخبزَ، وبالآخر اللحم، وبالثالث العطر. ففعل الفقير، وعقدوا النكاح، وبعث البنتَ إليه من الليل، فلمّا دخلتِ البنتُ بيت الزوج الفقير رأتْ هناك خبزًا يابسًا على كُوزٍ فيه ماء، قالت: ما هذا الخبز؟ فقال الفقير: فضلٌ من أكلي البارحة، وأنا أبقيتُهُ لهذه الليلة. فقصدتِ البنتُ الخروجَ، قال الفقير: كنتُ أعلمُ أنَّ بنت شاه متى تصاحبني وكيف ترضى بي وبما لي من الفقر؟ قالت البنت: يا فتى، أنا لا أَخرجُ بسبب الفقر؛ ولكن لقلّةِ اليقين، وضعفِ الإيمان؛ فإنّك كيف أبقيتَ خبزًا من الأمس إلى اليوم، ولم تعتمدْ على الرازّق؟ ولكن أتعجَّبُ من أبي، فإنّه ربّاني عشرين سنة، وقال: أزوّجُها من زاهدٍ، فزوّجني من لا اعتمادَ له على الله تعالى. فقال الفقير: وهل لهذا عذرٌ؟ قالت: نعم، إمّا أن أكونَ في هذا البيت، أو هذا الخبز اليابس.

نقل أنّه كان بين شاه وبين يحيى بن معاذ صداقةٌ، ثم اجتمعا في مدينةٍ،

وشاهُ ما كان يحضر في مجلس وعظِ يحيى، فقيل له في ذلك، قال: الصوابُ في هذا. فألحُوا عليه حتى حضرَ يومًا، وجلس في زاويةٍ من المسجد، فانقطع الكلام على يحيى، فقال: حضرَ شخصٌ هو أَولى بالكلام منّي.

ومن كلامه أنه قال: لصاحبِ الفضل فضلٌ على غيره ما لم يرَ فضلَ نفسِهِ، فإذا رأى فضلَ نفسه لم يبقَ له فضلٌ على غيره، بل يتواضعُ حينئذ.

وقال: الفقرُ سرٌّ من الحقِّ عند العبد، فما دام الفقيرُ يُخفيه يكون أَمينًا، وإذا أظهره ارتفعَ عنه اسمُ الفقر.

وقال: علامةُ الصدق في الفقر ثلاثٌ:

الأولى: أن يزول عن قلبك قدرُ الدنيا حتى يَستوي لديك الذَهبُ والتراب، بحيث أن تَنفضَ يدَك من الذهب كما تنفضَ من التراب.

الثاني: أن يسقطَ الخلقُ عن عينك حتى لا تُبالي بمدحهم وذمِّهم، ويكون كلاهما عنده على السوية، فإنّك لا تفضلُ بالمدح، ولا تَنقصُ بالذم.

الثالثة: أن لا يبقى لك حظٌّ من الشهوات حتى لا تفرحَ بحصول المُشتهى كأهل الدنيا، فإنْ وجدتْ فيك هذه العلامةَ فلازمْ طريقةَ المُريدين، وإلاّ فأين أنت وهذا الكلام!؟.

وقال: الخوف هو الحزن الدائم.

الخوف الواجب هو أن تعلمَ أنَّكَ مُقصِّرٌ في أداء حقوق الله تعالى.

التقوى هو الورع، وعلامةُ الورع الامتناعُ عن الشُّبهات.

علامةُ الصبر ثلاثٌ: تركُ الشكاية، وصدقُ الرضا، وقبولُ القضا بطيب القلب.

من غضَّ بصرَه عن المحارم، وأمسكَ نفسَه عن الشُّبهات، وعمَّرَ باطنَه بدوام المُراقبة، وظاهرَه باتِّباعِ السنة، وعوَّدَ نفَسه أكلَ الحلال، لم تُخطىء له فراسةٌ.

نقل أنّه كان يقولُ لأصحابه: اجتنبوا عن الكذب والخيانة والغيبة، ثم اصنعوا ما بدا لكم.

أقول: الخيانُة إمّا مع النفس، أو مع الخلق، أو مع الله تعالى، وعلى هذا يندرجُ في ترك الخيانة جميعُ الواجبات من امتثالِ الأوامر، والانتهاءِ عن النواهي، وإنّما ذكرَ الكذب والغيبة وإن كانا داخلَيْنِ في الخيانة لشدَّةِ الاهتمام بهما. والله أعلم..

قال رحمه الله: اتركِ الدُّنيا، فإنَّك تُبتَ. يعني التوبة حقيقةً، هو ترك الدنيا.

قيل: كيف حالُكَ بالليل؟ قال: كطيرٍ أُدخلَ فيه سفُّودٌ، ويقلَّبُ على النار، كيف يكون حاله؟.

نقل أنّ الخواجا علي السيرجاني[1] كان يُطعمُ الطعامَ على رأس قبر شاه روّحَ الله روحه، فوضعَ الطعامَ بين يديه يومًا، وقال: إلهي، أرسلْ ضيفًا. فإذا جاءَ كلبٌ، فصاح عليه عليٌّ، وذهبَ الكلبُ، فسمع صوتًا من القبر: تطلبُ ضيفًا، فإذا أُرسلَ إليك ضيفٌ تنهره! فقام عليٌّ في طلب الكلب، ودارَ كثيرًا في المحلاَّت والخرابات فلم يجدْه، فخرج إلى الصحراء، ووجده نائمًا في موضعٍ، فوضعَ عنده ما كان معه من الطعام، فلم يلتفتْ إليه الكلبُ، حتى قام عليٌّ قائمًا، ورفع العِمامةَ من رأسه، واعتذرَ إلى الكلب، وتابَ عمّا فعل وندمَ، فتكلّمَ معه الكلب، وقال: أَحسنتَ يا خواجا عليّ، تطلبُ الضيفَ، وإذا جاء تطردُهُ، ينبغي أن يكونَ لك عينٌ ناظرة بصيرة، ولو لم يكن شاهُ الكرماني وسيلةً لك لرأيتَ ما رأيت.

اللهم، طهّرنا برحمتك من رجسِ النفْسِ ودنس الهوى، وارزقْنا بكرمك متابعةَ نبيِّكَ المصطفى ﷺ في العلن والخفا، يا من إذا أرادَ شيئًا أن يقول له: كن، فيكون.

* * *

(١) في (أ) عليًا التيرجاني.